

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الشَّمائلُ المَحمدیةُ إصدار 1995 - الدرس : 21 - آدابُه إذا خَرَجَ إلى الناس

27-03-1995

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

آدابُه إذا خَرَجَ إلى الناس:

أيها الإخوة المؤمنون؛ مع الدرس الواحد والعشرين من دروس شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى سيرته صلى الله عليه وسلم وآدابه إذا خرج من منزله وبرز للناس.

تمهيد:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه، الإنسان، وهو بين الناس إذا تكلم إما أن يرقى، وإما أن يهبط، ومن أجمل صفات الرجل أن يكون كثير الصمت، فهو في مأمن، والإنسان لا يندم على كلمة لم يتكلم بها، لكن يندم أشد الندم على كلمة تفوه بها خطأ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إياك و ما يُعْتَدِرُ منه))

لا تقل كلمة تضطرُّ بعدها لتقول: سامحوني، أو: لا تؤاخذوني، وكلكم يعلم أن سيدنا معاوية قال لعمر بن العاص، وكان من دهاة العرب، (ما بلغ من دهائك؟ قال: والله ما دخلت مدخلا إلا أحسنت الخروج منه، فقال معاوية: لست بداهية، أما إني والله ما دخلت مدخلا أحتاج أن أخرج منه)، كلما أمعنت في الأمر، وفكرت فيه ملياً اتخذت قراراً صحيحاً، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد إنفاذ أمر تدبّر عاقبته، فلذلك أجمل صفة للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو بين أصحابه أنه كان يخزن لسانه، أي قليل الكلام، فإذا تكلم كان كلامه فصلاً، كلامه حقاً، وكلامه خير، وكلامه في الإصلاح، كلامه في معالي الأمور، لا في سفاسفها، لذلك فكلامك جزء من عمالك، هكذا فاعلم.

يُحِبُّ الْمَرْءَ عَنِ رَبِّهِ مِنْ لِسَانِهِ:

إخواننا الكرام؛ لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، لأن معاصي اللسان كثيرة جداً، وقد عدَّ الإمام الغزالي في الإحياء العشرات، بل بضع العشرات من آفات اللسان، والحقيقة أن المؤمن قلماً يفكر في أن يرتكب جريمة، أو أن يشرب خمراً، أو أن يأكل حراماً، أو أن يدخل مكاناً يغضب الله عزوجل، لكن المؤمن الآن من أين يُوتى؟ من أين يُحجب عن الله عزوجل؟ من لسانه، من أين يشعر بالخجل أمام ربّه؟ من لسانه، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يخزن لسانه، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، قبل أن تقول، هل في هذا الكلام غيبة، ونميمة، وبهتان، وسخرية، وإيذاء، وجرح، وطعن، ومبالغة، وكذب، وتدليس، فالإنسان كلما حاسب نفسه حساباً عسيراً في الدنيا، كان حسابُهُ يوم القيامة يسيراً، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال لأحد أصحابه:

((فِيكَ يَا فُلَانُ، أَوْ يَا زَيْدَ خَصْلَتَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ أَنَّهُ يَكْثُرُ الصَّمْتَ))

لا تتكلم إلا فيما يعينك، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَّهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

[رواه الترمذي]

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، كلامك جزء من عملك، و ربما كان الكلام دركاتٍ يهوي بها الإنسان، فكان عليه الصلاة والسلام يخزن لسانه، ليس معنى هذا أن يُطرح موضوع متعلّق بالدين مثلاً، وأنت تعرف الجواب الصحيح ثم تسكت، الساكت عن الحق شيطان أخرس، بل يخزن لسانه عما لا يعنيه، يخزنه عن الموضوعات السخيفة، مثلاً اختلفوا على سعر حاجة، خير إن شاء الله، لا ندخل في هذه، اختلفوا على رأي سياسي معيّن، هذا شيء لا يعنيني، اختلفوا في تحديد موعد، اختلفوا على توقعات فلا تعنيني، أما إذا اختلفوا على معنى آية وأنت تعرف معناها الدقيق ينبغي ألا تسكت، كان عليه الصلاة والسلام يخزن لسانه - دققوا - إلا فيما يعنيه، يعنيه الدعوة إلى الله، يعنيه أن يظهر الحق، يعنيه أن يُرسخ الحق في نفوس الناس يعنيه أن تشيع الفضيلة، هذا شيء يعنيه، يعنيه أن يعرف الناس بالله عزوجل، يعنيه أن يعرفهم بأمره، يعنيه أن يعرفهم بالأخرة، هذا كلُّه يعنيه، لذلك فالمؤمن يحير، بينما تراه طليق اللسان في الحق، إذ بك تراه كثير السكوت عن الباطل، موضوع لا يعنيه، لا يخوض مع الناس فيما يخوضون، الناس تستهويهم موضوعات لا ترضي الله عزوجل.

صِفَاتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ:

فأول صفة من صفاته عليه الصلاة والسلام وهو بين أصحابه.

ويؤلفهم، ولا ينفّرهم، سبحان الله ! الإنسان البعيد عن الله عزوجل، المقطوع الذي لا ينطوي قلبه على كمال ويحبُّ التفرقة، ويميل إلى الإيقاع بين الناس، إن زار أخته يكرّها في زوجها، وإن زار شخصا يكرّاه في شريكه، وإن سأل صانعا ماذا يعطيك معلّمك ؟ لا يكفي هذا، لا تقبل منه ؟ كرّاه في عمله، ودائما يسعى ليفرّق، يكرّاه الناس فيما عندهم دائما، ينتقد بينا صغيرا، وينتقد دخلا قليلا، وينتقد زوجا ضيق الحال، أما المؤمن فسبحان الله بالعكس، يذكر النواحي الإيجابية في الناس، إن زار أخته، ووجد وضعها المادي سيئا يذكرها بأخلاق زوجها، وبمكانته، وبعلمه، وباستقامته، وبعفته، وإن زار رجلا له محلّ تجاري، وله شريك، يذكره بفضائل شريكه، وببركة الشركة، وإذا زار بيتا وجده صغيرا، يقول لصاحبه: النبي كان بيته لا يتسع لصلاته، ونوم السيدة عائشة في وقت واحد، وهو سيّد الخلق، فينجبر خاطره، فمهما استطعت ألف، وقق، اجمع، عمّق المودة، ولا تنفّر الناس، لا تبعدهم عن بعضهم، لا تفرّق بين أمّ وولدها، ولا بين أخ وأخيه، ولا بين شريك وشريكه، كان عليه الصلاة والسلام يؤلفهم، ولا ينفّرهم، يؤلف بينهم، ويؤلفهم معه، أنت بيدك أن تجمع الناس حولك، بالكمال تجمعهم حولك، وبالنقص تنفّرهم منك، ودائما قالوا: الأقوياء يملكون من الناس الرقاب، بينما الأنبياء يملكون من الناس القلوب، فإذا شئت أن تملك القلوب فكن كاملا، ولا حاجة للتتويه بكمالك، ولا حاجة للتذكير بكمالك، لأن الفطرة العالية تألف الكمال، وتكره النقص، مهما أوّلته يبقّ نقصا، والكمال لا يحتاج إلى أن تشير إليه، فهو صارخ، فإذا أردت أن تؤلف قلوب الناس، وأن ترسخ ثقتهم بالدين فكن كاملا، إن هذا الدين قد ارتضىته لنفسه ولا يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه، و كان عليه الصلاة والسلام يؤلف الناس حوله، لأنه هو على الحق، إذا ألف الناس حوله أوصلهم إلى الله عزوجل، لذلك فالإنسان إذا دعا إلى الله لا بدّ أن يعدّ للمليون قبل أن يقول أو يفعل ما يؤدي للخطأ مع الناس، لأنه إذا أخطأ معهم نفّرهم عن الحق وعن الدين، وقلما تجد من الناس من يفرّق بين الدين وبين أهله، وعامة الناس الخطّ العريض عندهم أنّ الأمور عندهم متداخلة، فإذا أساء إليهم رجلٌ له صبغة دينية يبتعدون عن أصل الدين، لكن الإنسان الواعي جدّا لا يتأثر بأخطاء من ينتمي إلى الدين، الدين عنده في العلياء، وفي السماء، رجل مبادئ، لا رجل أشخاص، ولكن هؤلاء قلّة، لكن الكثرة يتأثرون بسلوك من عليه مسحة دينية، لذلك أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يُؤتَيْنَ هذا من قبلك، فكان عليه الصلاة والسلام يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم، ولا ينفّرهم، الكلمة الطيبة صدقة، الاعتذار صدقة، أي ليقنّد الإنسان بمقام النبي اللهم صلّ عليه، سيد الخلق يقول لعمر: يا أخي لا تنسنا من دعائك، فهل مكانة النبي انتقصت بهذا الكلام ؟ معاذ الله، سيد الخلق لما قال له، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَهُ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَالَ:

**((يا أخي لَا تُنْسِنَا مِنْ دُعَائِكَ وَقَالَ بَعْدُ فِي الْمَدِينَةِ يَا أَخِي أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ فَقَالَ عُمَرُ مَا أَحْبُّ أَنْ لِي
بِهَا مَا طَلَعْتَ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لِقَوْلِهِ يَا أَخِي))**

[رواه الترمذي]

فمثلاً شخصٌ خدمك خدمة، أو تقرب منك بهدية، تقرب منك بكلمة طيبة؛ زارك وسأل عنك فلا بد أن تشكره من أعماقك، من أجل أن ترسخ المعروف وترسخ الإحسان، فكان عليه الصلاة والسلام يؤلفهم ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويؤليه عليهم، أحياناً أنت تكون في منصب قيادي؛ كأن تكون مدير مستشفى، أو مدير مدرسة، أو مدير معمل، وتحتاج إلى أعوان لك، فإياك أن تقرب المنافقين، وإياك أن تقرب الذين يتقربون إليك بالوشاية والإخبار، قرب المخلصين، وقرب الأتقياء، وقرب الكُمَّل، لذلك كان يكرم كريم كل قوم، ويؤليه عليهم، كان عليه الصلاة والسلام يعرف أقدار الناس، وينزل الناس منازلهم، أنت لا تستطيع أن تستوعب الناس إلا إذا عرفت فضائلهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام عرف لكل صحابي جليل مكانته، وعرف إمكاناته، وعرف نوع عظمته، نوع بطولته، وأثنى عليه الثناء الطيب، أي قيادة الرجال قضية معقدة تحتاج إلى رجل يستوعب كل فضائل الرجال، فهذا تفوق في شيء إذا تجاهلته نفرت، وإذا عرفته أنك تعرف ما عنده من الإمكانيات، وإذا استشرته أحياناً، وإذا أثبتت عليه ثناء معتدلاً واقعياً تملك قلبه، فيمكن للإنسان أن يتعامل مع الناس كما يتعامل أصحاب الحرف مع المواد؛ النجار مع الخشب، والحدّاد مع الحديد، لكن إذا أردت أن تتعامل مع الرجال ينبغي أن تستوعبهم جميعاً، وأن تعفو عنهم، وأن تسامحهم، وأن تتجاوز عن أخطائهم من أجل أن تؤلفهم، وتقربهم، فكان عليه الصلاة والسلام يكرم كريم كل قوم، مرة زاره عديُّ بن حاتم وكان ملكاً، فأخذه إلى البيت، وأكرمه، وقدم له وسادة من أدم محشوة ليفاً، قال: "اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها وجلس هو - يعني النبي - على الأرض"، رأى زيد الخير، فقال له:

((يا زيد لله درك أي رجل أنت؟! ما وُصف لي رجلٌ فرأيتَه إلا رأيتَه دون ما وُصف إلا أنت يا زيد))

عرف قيمته، يكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم، أي إذا أردت أن تجرح الإنسان، وأن تحطّمه، وأن تهينه ولّ عليه من هو دونه، علماً وخلقاً، فذاك شيء لا يُحتمل، سئل سيدنا عليّ كرم الله وجهه: (ما الذلُّ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردّه)، إذا ولّيت على أناس كرماء لئيماً فقد حطّمتمهم، فقد ذبحتمهم من الوريد إلى الوريد، يجب أن تولّي على كل قوم أكرمهم، وأعدلهم، وأرحمهم، لذلك عندما الصحابة الكرام تخوّفوا من سيدنا عمر حين ولّاه سيدنا الصديق، فسيدنا الصديق قال: (أتخوّفونني بالله، أقول لله عزوجل يوم القيامة: يا ربي ولّيت عليهم أرحمهم)، ولّيت عليهم أرحمهم، أنت أحياناً على مستوى معلّم صف لو عيّنت عريفاً، أنتقي مثلاً بسيطاً، فعن هذا العريف يُحاسب المعلم يوم القيامة، كيف ولّيته، وفي الصف من هو خير منه؟ من ولّي رجلاً على عشرة، وفيهم من هو خير منه فقد خان الله ورسوله، كان

يوّلي كريم كل قوم، فلا بدّ أن توّلي الكريم النزيه النظيف المنصف العادل الرحيم، أحيانا أنت تجد هذا الأمر بيد فلان ففترتاح نفسك، إنه ابن أصل، منصف نظيف، ويده نظيفة، وعفيف، حقاً تشعر براحة ما بعدها راحة عندما توّلي الإنسان الكفاء تولى منصبا معيّنا، لذلك:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)﴾

[سورة القصص]

القوي الأمين، والقوة تعني الكفاءة، والأمانة تعني الإخلاص، كان قوياً في اختصاصه، أمينا على قيمه، هناك إدارات للعمل أنا أعترض عليها اعتراضا شديدا، أحيانا مدير عام شركة يتلقى كلّ معلوماته من أحد الموظّفين، وقد يكون أحد هؤلاء ليس في المستوى المطلوب، فينقل المعلومات التي يريد، هؤلاء الذين يملي عليهم من هو دونهم، وبدأ ينقل المعلومات غير الصحيحة لمن هو أعلى منه، ماذا فعل هذا بهؤلاء؟ بالغ في الإساءة إليهم، لذلك يقول سيدنا عمر: (و لا تغلق بابك دونهم، فيأكل قوئهم ضعيفهم).

2- كان يحذر الناس ويحترس منهم:

كان عليه الصلاة والسلام، وهو مع الناس يحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره، وخلقه، إنسان لا تعرفه، يجب أن تأخذ الحيطة منه، المؤمن كما قال النبي:

((كَيْسَ فُطْنِ حَذْرٍ))

قال لي شخص: إنه قد أشار له شاب في الطريق فأركبه معه في سيارته، ثم تبين أنه قاتل، وبقي في السجن خمس سنوات أو ستاً، الذي أركبه اعتُبر متواطئا معه، وسارت التحقيقات وعلى المدى الطويل، فأحيانا الإنسان يكون الشخص يحمل مخدّرات، وأحيانا يكون الشخص يحمل مواد ممنوعة، فلا تكن ساذجا، سيدنا عمر علّمنا فقال: (لست بالخب ولا الخب يخدعني)، لا من السذاجة حيث أخدع، ولا من الخبث حيث أخدع، فكان يحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره وخلقه، هناك ابتسامه، وهناك مودّة وهناك علاقة طيّبة، لكن هناك ذكاء، هناك حيطة، وهناك حذر، نسمع أحيانا من إخواننا قصصا ليس من المعقول أن تقع، مثلاً مبلغ ضخّم سلّمه إياه من دون وصل، ثم تبين أنه نصّاب، دفع مبلغ استثمار لجهة غير موثوقة فذهب المبلغ، المؤمن طيّب لكن ليس ساذجا، المؤمن عنده حسن ظنّ بالناس، لكنه ليس أبله، فنحن في زمن يقال: إنّ المؤمن ذاك الإنسان الدرويش، وكلمة درويش لها معنى أعمق، أي أجدب، فلان درويش، لا ليس درويشا، في أعلى درجات اليقظة والحيطة و الذكاء، المؤمن كَيْسَ فُطْنِ حَذْرٍ، فالإنسان قبل أن يوقّع، وقبل أن يقبض، وقبل أن يسلم نفسه لإنسان، هذا الذي أوكلت إليه مصيرك هل تعرفه؟ سيدنا عمر علّمنا، قال له: (ائتني بمن يعرفك، فهذا الذي طُلب منه جاء برجل، قال له: أتعرفه؟ قال: نعم، قال له: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال: هل جاورته؟ قال: لا، قال: هل عاملته بالدرهم و الدينار، قال: لا، قال: إذا أنت لا تعرفه، لعلك رأيتَه يصلي في المسجد، قال: نعم،

قال: أنت إذاً لا تعرفه، هل جاورته لا، هل سافرت معه ؟ لا، هل حاككته بالدرهم و الدينار ؟ لا، قال له: أنت إذاً لا تعرفه، قال له: يا هذا إني لا أعرفك (هذا الشاهد غير كافٍ، لكن من شدة أدبه رضي الله عنه، قال له: (ولا يضركُ أني لا أعرفك)، قد تكون أحسن مني، إني لا أعرفك، ولا يضركُ أني لا أعرفك، انظر إلى قصر العدل، يقال لك: خمسة آلاف دعوى، أسبابها كلها تصرّف في سداجة، سلّم بلا تيقن، أعطى بلا إيصال، أسس شركة بلا عقد، إذا لم يكن هناك عقد، ولا إيصال يدخل الشيطان، ليس معه وثيقة ضدك، أنت عندك أولاد وهو غنيّ، يدخل الشيطان، فأنا أتمنى على إخواننا الكرام، وثّق كلّ شيء، وثّق كلّ شيء ترتخ، ونم على ريش نعام كما يقول بعضُ الناس، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره وخلقه، وجهه بشوش، علاقاته طيبة عليه الصلاة والسلام، لكن إذا لم يعرف الإنسان يسأل، ويدقّق، والله إني لأسمع عن حالات زواج شيئاً لا يُصدّق، ببساطة وافقوا على الزواج، وتبيّن أنه شارب خمر، وببساطة وافقوا، وتبيّن أنه نصّاب، وتبيّن أنه كذاب، إنّ الزواج رقٌّ فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، والحقيقة أنّ الناس لا يحترمون المغفل أبداً، أنت لا تكن مغفلاً، ولا تكن طيباً لدرجة السداجة، ولا تكن غير مدقّق فيما يقوله الناس.

3- كان يتفق أصحابه:

من صفاته مع أصحابه كان يتفق أصحابه، أيها الإخوة الأكارم؛ يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يسأل العبدَ عن صحبة ساعة))

أليس لك أصدقاء في أثناء الدراسة ؟ أليس لك أصدقاء في الخدمة الإلزامية ؟ أليس لك أصدقاء في العمل التجاري ؟ أليس لك أصدقاء في الوظيفة ؟ هل تفقدتهم وسألت عنهم، لا تريد عملاً ترقى به عند الله عزوجل، هكذا النبيُّ علمنا، كان يتفق أصحابه، سيدنا عمر بلغه أن أحد أصدقائه صار في الشام، وعافر الخمر، وانتكس على رأسه، فأرسل له كتاباً صدره بقوله تعالى:

﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)﴾

[سورة غافر]

و نصحه نصيحة طيبة، فهذا الرجل قرأ الكتاب وصار يبكي، أعاده مرة، ومرتين، وثلاثاً، وأربع مرات، إلى أن ألق عن شرب الخمر، وبلغ سيدنا عمر النتيجة الطيبة لهذا الكتاب، فقال سيدنا عمر: (هكذا اصنعوا مع أخيك إذا ضلّ، لا تكونوا عوناً للشيطان عليه، بل كونوا له عوناً على الشيطان) إذا شرد أخ، وانتكس، وترك الصلاة، وانغمس في المعاصي فلا تحاربه، تألف قلبه، وزره، وأحسن له، وقدم له هدية، فإنك بهذا العمل تستجلبه، وكان عليه الصلاة والسلام يتفق أصحابه، وأخ كريم قال لي كلمة أعجبتني، قال: أنا أفضل أن أزرع عشر غرسات، وأعتني بها عناية فائقة حتى تكبر، وتثمر خير لي من أن أزرع ألف غرسة من دون عناية، كلها تيبس بعد ذلك، هذا هو الفرق بين التربية والتعليم، لا

تهتم بالقاء الدرس وتذهب، هذا الأخ الذي أمامك له مشكلة، وله قضية، فهل سألت عنه؟ وعن أحواله؟ هل تابعت أموره، وتفقدت أحواله؟ فالمتابعة تعني المودة، والنبى كان يتفقد أصحابه، فتفقدوا بعضكم، وأكثر شيء أنا ألح عليه أن كل أخ من إخواننا يتولى أخوا واحدا فقط، واحدا، والله واحد ليس بالقضية الصعبة، أتيت إلى درس الجمعة، ولم يأت، معناه أنه مريض لا سمح الله، معناه أن عنده مشكلة، أتصل به، هذا الإنسان توفي أخذ أقربائه بلغونا حتى نعزيه، يجده شيئا حلوا، وذاك مريض نزوره، وآخر بحاجة إلى حل مشكلة لعلها تحل عن طريق أحد الإخوان، فأنا أتمنى عليكم واحدا واحدا أن يتأخى مع أخ واحد، وهذا هو الحد الأدنى، اثنين أحسن، والثلاثة أحسن، الخمسة أحسن والعشرة أحسن، ولكن الحد الأدنى واحد، إن الناس كلهم يتعاملون معك في هذه الدنيا، بيع و شراء، أما إذا طرق إنسان بابك ليس له شيء عندك، غير أنه أحبك في الله، وتفقدك الله، وسأل عنك الله، واطمأن عن صحتك الله، فلتشعر أن هذا الإنسان متميز، وقلبك مفعم بالمحبة له، فإذا سلك إنسان طريق الإيمان فنحن بحاجة إلى أن نُفقد النبيّ العدنان، فُقد في تفقد إخوانه، فُقد في زيارته والسؤال عنهم، وفي عيادة مريضهم، في مساعدة محتاجهم، و في رعاية ضائعهم، فُقد.

فأول نقطة: يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، يؤلفهم، ولا ينفّرهم، يكرم كريم كل قوم و يوليه عليهم. ثاني نقطة: ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي بشره عن أحد. ثالث نقطة: يتفقد أصحابه.

هذه أخلاقه الاجتماعية، ولا يوجد أحد منكم على الإطلاق إلا وله مجتمع يجتمع إليهم، لك زوجة، ولك أولاد، ولك أصدقاء، ولك جيران، لك أولاد عم، ولك أصهار، ولك بنات، ولك أولاد، لك أعمام ولك أخوال، ولك زملاء في العمل، فلا أحد مقطوع من شجرة، ولا أحد ليس له مجتمع حوله، هذا المجتمع الذي حولك يمكن أن تصل من خلاله إلى الله، و يمكن تحلل من خلاله أعلى مراتب الجنة، تفقدهم واخدمهم و انصحهم، وزرهم وأعينهم، مجتمع المؤمنين مجتمع التعاون، تجد كل الإخوة يسارعون لمعونة المضطر، كل أخ مؤمن كل طاقاته لإخوانه، نحن شعارنا إن صحَّ التعبير " كلنا للفرد، والفرد كلُّه للمجتمع " .

4- كان يسأل الناس عما يعاني منه الناس:

من صفته الاجتماعية الراقية أنه كان عليه الصلاة والسلام يسأل الناس عما يعاني منه الناس، ليس يعيش في برج عاجي، وليس يعيش في أحلام، وليس يعيش في اهتمامات بعيدة عن واقع الناس، كان يعنيه ما يعني الناس، أحوال الناس، يعانون من قضية، فتراه قد سأل عنها، وتفقد إخوانه، وحاول معالجة مشاكلهم، هناك أشخاص عندهم روح فردية، فهو يملك بيتاً، وهو متزوج، ودخله يكفيه، عنده شركة رابحة، فلم يعد يهتم حتى أمر الأولاد، تزوجوا أو لم يتزوجوا، لهم أعمال أو لا، شعاره: لا توجع رأسك، هذا إنسان فردي، هذا إنسان لا يحبُّه الله عزوجل، لأنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم،

عندك اهتمامات مقدّسة خاصة بك، واهتمامات ليس لك أجر عليها، بدافع حبّك لذاتك، فالإنسان لا يرقى عند الله إلا باهتماماته الجماعية، يهّمك أمرُ إخوانك، يهّمك أمرُ هدايتهم، يهّمك أمرُ زواجهم و أمر عملهم، أمر دينهم فالنبي الكريم كان يسأل الناس عما في الناس، زارك أخٌ من محافظة بعيدة، كيف الأمطار عندكم؟ وكيف أحوالكم؟ وكيف أعمالكم؟ والحق أقول: إنني أحاول أن أفدّ النبيّ الكريم، أسأل الأخ عن زوجته، كيف الأهل بخير؟ الأولاد أهم بخير؟ العمل جيّد، وليس فيه متاعب أولادك ما أخبرهم، أعمارهم، أسماؤهم، أين وصلوا في الدراسة؟ هذا الشيء ينمّي المودّة، فالنبيّ الكريم كان عليه الصلاة والسلام يسأل الناس عما في الناس.

5- كان يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويضعفه:

ويحسّن الحسنَ ويقوّيه، أحيانا الإنسان لا ينتبه لنفسه، يسمع قصةً فيها مخالفة للشرع، يقول لصاحبها: هكذا عملت، فأتنى على صاحبه، أنت ماذا فعلت؟ تكلمت كلاما فيه معصية كبيرة، أنت الآن قوّيت القبيح، و قويت المعصية، أثبتت على صاحبها، لو كان العمل في ظاهره فيه بطولة، ولكنه في أساسه مخالفة للشرع، فلا ينبغي أن تمدحه، ورد في الحديث:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

أجل، يغضب، وإذا مدحت الفاسق رسّخت الرذيلة، رسّخت المعصية، ينبغي أن تحسّن الحسن وتقوّيه، وأن تقبّح القبيح، وأن تضعفه، وأن توهّنه، وجدت عملا طيّبا أثن على صاحبه، هذا شاب يصلي في المسجد، قل له: تقبّل الله، قال لي أخ إنّ شابا دخل المسجد شاب، وسرق حذاؤه، هو حالته - القائل - المادية جيّدة، قال لي: مباشرة - وكنا سوق الحميدية - اشتريتُ له حذاءً، يقول هذا الشاب الذي سرق حذاؤه: ما تركت الصلاة طيلة حياتي، تأثرا بهذا الموقف، فإنسان عمل عملا طيّبا فشجّعته، قوّ له همّته، وإنسان عمل عملا سيّئا فلا تسكت، انصحه، واذكر له أنك خالفت الشرع، وما دام هناك أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فالله يحبّنا جميعا، أما إذا غطّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمتقنا الله جميعا، ولو كنا صالحين، والله أمر بإهلاك بلدة، فقيل: يا رب إن فيها صالحا، فورد في الحديث أن به فابدؤوا، قالت الملائكة: لم يا رب؟ قال: لأن وجهه لم يتمرّ حين رأى منكرا، وانتهى الأمر، لذلك فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة، قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)﴾

[سورة الأنفال]

وقال الله عزوجل:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (117)﴾

[سورة هود]

إذا كانوا مصلحين لا يهلكون، أما إذا كانوا صالحين يهلكون، والفرق واضح بين المصلح والصالح، الصالح لذاته ولنفسه، أما المصلح لغيره، يحسن الحسن و يقويه، ويفتح القبيح و يوهيه، وبعض الآباء أيضا إذا كذب ابنه سكت، فهذه والله مشكلة، وإذا ترك الابن الصلاة، أو ترك فرض صلاة، ولم يحتج الأب، أو يعترض فالأمر خطير، و إذا عمل الابن عملا طيبا وسكت الأب، ولم يعبا به، فقد ضعفه، وهذه النقطة ما أدقها ! كلما وجدت عملا طيبا فعليك أن تثني على صاحبه، وأن تقوّيه، وأن تبرزه، وأن تدعّمه، وكلما وجدت عملا سيئا فعليك أن تحقر صاحبه، وتقبحه، وتوهنه، وأن تحذر الناس منه.

6- كان معتدل الأمر:

كان عليه الصلاة والسلام وهو مع أصحابه معتدل الأمر، فلا مبالغات، ولا تطرف، ولا غلو، ولا إفراط أو تفريط، الإفراط المبالغة، والتفريط التقصير، أصوب موقف الاعتدال، معتدل الأمر غير مختلف، فليس هناك تناقض، الإنسان أحيانا يتناقض، سمعت قصة مفادها أنّ شابا اشترى لزوجته غسالة من النوع الحديث، فقالت له أمه موبخة: لماذا ؟ من أجل أن تبقى نائمة إلى الظهر، وعنفته أشدّ التعنيف، لكنه من غرائب الصدف أن صهرها اشترى لابنتها الغسالة نفسها، فقالت: الله يرضى عليه، ويوفقه، فهل هناك أفبح من التناقض ؟ خاصة في التعامل مع الأبناء والبنات، انظر إلى الأب أحيانا، تكون له بنت، وكلمته عنها رقيقة مع مدح لها، وعطف عليها، دائما معذورة، في تعب، مسكينة لا ترتاح، و إذا قصرت زوجة ابنه يوما فيقول: كسلانة، ليس لها همّة ونشاط، وليس فيها ذوق، لا تتناقض أيها الرجل، فالتناقض بشع، مرة كنت في محلّ تجاري، وفي المحل في أثناء العطلة النصفية، ابن صاحب المحل وصانع في سنه، والله حمل الصانع ثوبين أو ثلاثة، قال له صاحب المحل: حمل المزيد، فأنت الآن شاب قوي، وأمسك ابنه ثوبا، "احذر بابا ظهرك"، يا لطيف، احتقرته احتقارا شديدا، هذا ضد الناس، هذا تحمله ثوبين، وثلاثة، وخمسة، وعشرة حتى لا يتحمل، قال لك: لا أستطيع أن أحمل، فقلت: لا بأس فأنت شاب، أما ابنه حمل ثوبا واحدا فأنت تخاف على ظهره، الإنسان لو سار في الطريق عاريا بلا ثياب والله أشرف من أن يتناقض، إياك أن تتناقض، النبي الكريم معتدل الأمر غير مختلف، ودائما وأبدا عندنا مقياس لا يخطئ، لا يخطئ أبدا، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، ضع نفسك مكان هذا الإنسان، أنت موظف وراء الطاولة، جاءك مراجع، ضع نفسك مكانه، هناك حديث لطيف، هناك فنجان قهوة ساخن، والجريدة أمامك، والذي يراجعك ملهوف، تقول له: تعال غدا، من أين أتى هذا ؟ كم من حافلة ركب حتى وصل إليك ؟ قد يكون جاء من حمص، يعني يذهب لينام في الفندق، وسيتكلف ادفع حوالي ثمانمائة ليرة أو ألفا، وتقول له: تعال غدا، والقضية تكلفك عشر دقائق، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، إنه معتدل الأمر غير مختلف.

إخواننا الكرام، المؤمن ينصف الناس من نفسه، لو كان قويا، و لو كانت كلمته هي العليا، لو لم يجرا أحداً أن يحاسبه فليحاسب نفسه، يعتذر، يقول: سامحوني، أنا غلظت، أما أن يكون دائما هو على الحق،

والناس على باطل، فهذا الموقف غير منصف، فكان عليه الصلاة والسلام معتدل الأمر غير مختلف، أي لا تناقض في حياته، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

((أَنَّ فُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنَ الْمَرْأَةِ الْمُخْرُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدِّدَ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَأَخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[رواه البخاري]

لكل حال عنده عتاد، العتاد أي الأدوات، أي عليه الصلاة والسلام يخطِّط، هناك حال، وقد يُفاجأ بحال، يهَيِّئ ما يغطِّي هذا الحال، الإنسان الساذج السائب هو الذي تواجهه الأحداث، فأفعاله كلها ردود فعل، كلُّ شيء متوقَّع يهَيِّئ له حلاً، والفكر العلمي لو أنه ما وافقه ماذا أفعل؟ لو سافرت ماذا أفعل؟ لو قُبلت في هذا العمل ماذا أفعل؟ دائماً يفكر في المستقبل، أساساً الأذكى يعيشون المستقبل سلفاً، والأقلُّ ذكاء يعيشون الحاضر، والأغبياء يعيشون الماضي، قال:

ألهى بني تغلبٍ عن كلِّ مكرمةٍ قصيدةٍ قالها عمرو بن كلثوم

التغني بالماضي، دون أن يكون الحاضر امتداداً للماضي، فهذا غياب من الإنسان، و الاهتمام بالحاضر ثم يُفاجأ بالمستقبل بأشياء غير متوقَّعة فهذا أيضاً غياب من الإنسان، لا بدُّ من أن تعدَّ لكلِّ شيء عدته، لذلك فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيِّدَ أَحَدِكُمْ فَسَبِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

[رواه أحمد]

لا أعتقد أن هناك مثلاً أوضح من هذا المثل:

((إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيِّدَ أَحَدِكُمْ فَسَبِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

رغم أنَّ الدنيا فليغرسها، هيَّي لأولادك من بعدك، سيدنا زكريا ماذا قال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5))

[سورة مريم]

ليس المهم أنه دعا إلى الله، والناس التفؤوا حوله، لا، لكن فكر بمستقبل الدعوة، وفكر بمن يحلُّ محلّه، هناك كثير من الأشخاص عظماء، لا يفكرون أبداً فيمن يحلُّ محلّهم، هيَّي ناساً يتابعون العمل، لكل حال

عنده عتاد، لا يقصّر عن الحق لا، ولا يجاوزه، هناك أشخاص إذا أقبلوا كان إقبالهم غير معقول، وإذا أدبروا كان إدبارهم غير معقول، إذا أحبوا إنسانا يزوجه ابنتهم، فهذا الإنسان بحديثهم ليس إنسانا عادياً، إنه فوق التصور خلقا وعلما، وفهما وغنى، فإذا وقع هناك خلاف يتهمونه بأنه مصاب بأمراض وأنه لنيم... إلخ، فهذا عدم الاعتدال، عن أبي هريرة أراه رفته قال:

((أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا))

[رواه الترمذي]

الذين يلونه من الناس خيارهم، لا تقرب أراذل الناس منك، قرب الأكارم، أنت مؤمن ولك سمعة ولك مكانة، اترك من حولك قريبين منك، لا تصاحب الأراذل، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعظم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة، والأقوياء أحيانا يقربون أناسا غير جيدين، فالناس يتعاملون مع القمم من أعوانهم، الأعوان إذا لم يكونوا على المستوى الراقي يسيئون أشد الإساءة لمن فوقهم، فأنت لا تقرب إلا الإنسان الكامل، لا يكن حولك إلا إنسانا كاملا، لأنك تُعرف به، كلّمك يعلم أن صحبة الأراذل تجرح العدالة، أنت إنسان مستقيم ومالك حلال، وعفيف، وملتزم، يكفي أن تصحب رذيلا حتى تُجرح عدالتك كيف انسجمت معه، كيف سرت معه، كيف سافرت معه، لهذا قال العلماء: صحبة الأراذل تجرح العدالة، لذلك فالذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعظم نصيحة، والإنسان إذا كان في موقع قيادي لا يلغي المعارضة، لو ألغاهما ينافق له، أصغ إلى النصيحة، وأصغ إلى كلمة الحق ترق، أما إذا رددت كل نصيحة فلن ترقى، بل تهلك، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة، هذه أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام وهو بين أصحابه من باب التذكير أكرّر يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا ينقرهم، يكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم، يحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي بشره عن أحد، يتفقد أصحابه، يسأل الناس عما في الناس، يعنيه أمر الناس، يحسن الحسن ويقويه، ويفتح القبيح ويؤهنه، معتدل الأمر غير مختلف، ليس لديه تناقض، معتدل، لا إفراط ولا تفريط، لكل حال عنده عتاد، يهتئ للمستقبل، يخطط، لا يقصّر عن حقِّه ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعظم نصيحة، أعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

هذه بعض شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، وهو بين أصحابه، وله كذلك شمائل وهو في بيته، ومنتقل في درس قادم إن شاء الله تعالى إلى آدابه صلى الله عليه وسلم في مجالسه مع أصحابه.